تحقيق

تريز الخوري
khourytherese@hotmail.com

استقلال لبنان: رمز الحريّة والسيادة الوطنيّة رحلة نضال أهل الأرض نحو الكرامة والتحرّر

نال الوطن استقلاله في 21 تشرين الثاني عام 1943 بعد سنوات طويلة من الكفاح والصمود ضد الانتداب الفرنسي. جاء ذلك ثمرة جهود وتضحيات رجال اوفياء شجعان آمنوا بحرية بلادهم، وحق شعبهم في تقرير مصيره. سيظل هذا اليوم رمزا للفخر الوطني وفرصة لتجديد العهد بالالتزام بحماية الدولة وتعزيز وحدتها

تعتبر هذه المناسبة من اهم المحطات التي تحمل في طياتها خلاصة ذاكرة شعب حارب عبر عقود طويلة ليصون هويته وحريته ووجوده. فهو ليست ذكرى عابرة يتم احياؤها بالاستعراضات والخطابات، بل هي رمز متجذر في الوجدان الجماعي، تستحضر فيها الناس تاريخا طويلا من التحديات التي واجهها رجال ونساء آمنوا بأن بلدهم لا يقوم الا على الارادة الحرة والقرار السيادي المستقل. وقد شكل عملهم هذا نقطة تحول حاسمة في هذا المسار حين وقف ابطال الاستقلال متحدين الاعتقال والضغط، ومؤمنين بأن الكرامة الوطنية لا تشترى ولا تمنح، بل تنتزع بصلابة الموقف ووحدة الصف. وهكذا تم وضع الحجر الاساس لولادة دولة حديثة، قادرة على مواجهة الازمات الداخلية بالروح نفسها، لأن قوة لبنان الحقيقية تكمن في تنوعه ووحدته. ان الاحتفال بهذا العيد هو دعوة لتعزيز المواطنة الفاعلة التي تعني المشاركة والايمان.
"الامن العام" حاورت الباحث والمؤرخ الدكتور عصام خليفة، والامين العام للجنة الوطنية الإسلامية - المسيحية للحوار الدكتور محمد السماك.

خليفة: نطمح الى دولة ذات سيادة كاملة

■ ما هو مفهوم الاستقلال لديكم؟

□ لهذه الكلمة مفاهيم متنوعة، فيمكن القول انها مسار طويل ومتدرج بدأ منذ العهد العثماني، عندما تمتع جبل لبنان بخصوصية لم تكن موجودة في سائر المناطق اللبنانية. فقد تولى امراء بيت شهاب ادارة شؤون الجبل الداخلية بشكل شبه مستقل، واتخذوا دير القمر مقرا لاقامتهم، حيث نظموا القضاء وجباية الضرائب وادارة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية من دون تدخل مباشر من الدولة العثمانية. ومنحهم هذا الوضع امتيازات قانونية وسياسية، شكلت نواة حكم ذاتي متطور اعتبر لاحقا اساسا لبناء الوطن، واتاح للجبل ان يكون نموذجا للسيادة الجزئية داخل الامبراطورية العثمانية. مما لا شك فيه ان الحكم الذاتي تحول الى حركة واضحة مدفوعة بالوعي، وفي هذا الاطار برزت شخصيات وطنية ومثقفون ناضلوا من اجل وضع اسس لدولة لبنان من ابرزهم يوسف السودا وداوود بركات وخيرالله خيرالله، الذين قدموا مذكرات ومطالب رسمية الى المحافل الدولية للدفاع عن حق البلد في ادارة شؤونه بحرية. كما ساهمت الصحافة اللبنانية والمغترب اللبناني في تقديم الدعم من خلال نشر المقالات والنداءات والرسائل التي اكدت ضرورة الحفاظ على الهوية والعمل على تأسيس دولة تحمي حقوق المواطنين وتضمن لهم الحرية والاستقرار. خلال الحرب العالمية الاولى، واجه لبنان تحديات كبيرة نتيجة المجاعة والضغوط السياسية، الا ان المغترب لعب دورا محوريا في دعم شعبه بالمال والموارد والمعنويات، مما ساعد على استمرار النضال الوطني. وفي مؤتمر سان ريمو 1920، قاوم البطريرك الحويك القوى الكبرى مطالبا بحق اللبنانيين في استقلالهم، وهو الحدث الذي مهد لاعلان دولة لبنان الكبير لاحقا من قبل الجنرال غورو، من الناقورة الى النهر الكبير. رغم هذا الانجاز، ظل البلد يعاني من صراعات داخلية بين مَن اراد الانضمام الى سوريا الكبرى ومَن تمسك بالاستقلال الوطني. استمر الكفاح السياسي والديبلوماسي حتى 1943، حين تمكن اللبنانيون من استكمال استقلالهم الفعلي، وقد تميز بتلاحم الشعب ومساندة القوى الوطنية، وبتضحيات رجال السياسة والمثقفين الذين وضعوا مصلحة الوطن فوق اي اعتبارات شخصية او طائفية. الجدير ذكره، ان الاستقلال لم يكن مجرد حدث تاريخي، بل هو قيمة مستمرة ومتجددة، فحتى بعد اعلانه بقيت المسؤولية على الاجيال اللبنانية في صون السيادة والعمل على تعزيز الوحدة الوطنية والتربية المدنية التي تزرع الانتماء وحب الوطن. فلبنان، رغم صعوباته، يظل قادرا على النهوض متى اجتمع ابناؤه على ارادة صادقة لحمايته والعمل من اجل مستقبله.

■ ما هو الدور الابرز الذي لعبه المغتربون اللبنانيون في انطلاق الحركة الاستقلالية؟

□ لعب المغتربون دورا محوريا في انطلاق الحركة الاستقلالية، وكان لهم تأثير كبير على صمود لبنان واستمرار نضاله نحو الحرية. فقد ساهم رجال الفكر والاعلام في المهجر، وعلى رأسهم نعوم مكرزل، صاحب جريدة "الهدى"، في ايصال صوت لبنان وقضيته الى المحافل الدولية، وخاصة في مؤتمر الصلح، من خلال مذكرات واضحة وموثقة تطالب بالاستقلال. اضافة الى ذلك، تميز الاغتراب اللبناني بموقف عملي وملموس، اذ قدموا ايضا مساعدات مالية وغذائية للشعب اللبناني في اثناء المجاعة التي عانى منها الوطن خلال الحرب العالمية الاولى، مما ساعد في تخفيف المعاناة واستمرار صمود المواطنين. هذه الجهود اظهرت مدى ارتباط المغترب بأرضه ووطنه، واثبتت ان دعمه كان حجر الزاوية في استمرار القضية اللبنانية وتشكيل الاسس التي مهدت لاحقا لاعلان دولة لبنان. من هنا، يمكن القول ان الاغتراب اللبناني لم يكن مجرد شاهد على الاحداث، بل كان فاعلا رئيسيا ومشاركا في صناعة الاستقلال والحفاظ على روح الوطن في اصعب الظروف.

■ ما هو الوضع الحالي للبلد؟ وكيف يمكن تقييمه؟

□ نعيش مرحلة دقيقة تتجلى في تحديات ديموغرافية خطيرة وازمة اقتصادية عميقة تهدد المقومات، مما يجعل الحاجة ماسة الى اصلاح شامل. فالمواطن يعاني من غياب الرفاهية والضمانات، بينما تراجعت التربية الوطنية وفقدت الذاكرة التاريخية لدى الاجيال الجديدة مع الاتجاه الى امكان الغاء مادة التاريخ من المناهج، وهذا امر غير صحي وغير جيد.

■ ما هو وضع لبنان اليوم في ظل التغيرات في المنطقة؟

الباحث والمؤرخ الدكتور عصام خليفة.

> نسعى الى بناء دولة ذات سيادة وحرية مطلقة

□ تعمل اسرائيل وفق خطة تهدف الى تفكيك الشرق، بما في ذلك لبنان، وفي ظل تراجع الاهتمام الاقليمي بالشأن اللبناني، تزداد المخاطر على سيادة وطننا. لذلك، اؤكد على ضرورة التشبث بالاستقلال المطلق، وضمان حرية الدولة في النمو والتقدم وتنظيم شؤونها الاقتصادية الداخلية. كما ادعو الشعب الى رفض كل اشكال التمييز الطائفي والمذهبي، والتمسك بوحدة المطلب، والعمل بلسان واحد ويد واحدة لبناء لبنان القوي القادر على مواجهة الازمات والتحديات.

السماك: اؤمن بالمساواة وبالحرية الدينية

■ هل ما زال الاستقلال يحتفظ بمعناه الحقيقي بعد مرور أكثر من 80 عاما؟

□ ما اود قوله، هو ان ما يمر به لبنان ليس حدثا ماضيا فقط، بل هو فعل حاضر ومستمر ومستقبلي أيضا. فالاستقلال والوطنية يتطلبان انجازا يوميا متجددا مع اشراقة كل شمس، وفي كل صباح. انه عمل مستمر لا يمكن التوقف عنه، كحركة القلب، فمع كل خفقة تظهر ومضة حياة، ومع كل انجاز وطني يسطع اشعاعه. فالاستقلال لا يقتصر على خروج الاجنبي او انهاء الوصاية، بل هو عملية مستمرة لصناعة الوطن من خلال ولاء متواصل وانتماء بلا حدود.

■ كيف تقيمون تجربة لبنان بعد الاستقلال؟ هل نجحنا في بناء دولة سيدة حرة، ام ما زلنا نبحث عن مقومات السيادة؟

□ قدر هذا البلد هو اما ان يكون ضابطا لوحدة التعدد، او ان يكون مجرد زائد واحد الى كيانات سياسية تلغي الآخر المختلف او تخضعه او تعطل دوره في صناعة الغد. اختار بلدنا لنفسه الصيغة التي اشار اليها البابا الراحل يوحنا بولس الثاني، وهي التي لا يزال الفاتيكان يعتبرها اساسا لتحقيق امرين اساسيين: الحرية الدينية والمساواة في المواطنة في كل دول الشرق. يتمتع الوطن بهذين الامرين الجوهريين، مما يؤهله لأن يتبوأ موقعا نموذجيا. فروما ادركت ذلك، وقبلها جامعة الدول العربية التي حرصت على تضمين فقرة ◄

◄ وهي ميثاق الاسكندرية اي ان تتخذ القرارات المطلوبة والتي يعول عليها بالاجماع وليس بالاكثرية للمحافظة على الخصوصية اللبنانية في مراعاة الوحدة وفي التعدد. لذلك فان بلدنا سيد نفسه منذ ولادته، وهو لا يبحث عن السيادة. لكنه يفتش عن الطريق السليم التي تمكنه من الوصول الى اهداف الرسالة التي يحملها باحترام التنوع في المجتمع الوطني الواحد.

■ اين نحن من الاستقلال اليوم في ظل التوترات السياسية والاقتصادية المتكررة؟

□ ان الازمات بأبعادها الاجتماعية الخطيرة ليست وطنية، فجميع اللبنانيين يعانون من مضاعفاتها ويتمسكون بالسيادة والاستقلال. الانتهازيون كثر، هذا صحيح، لكن الوطنيين هم الاكثرية الساحقة الذين لا يؤمنون فقط في حدود مساحة الوطن الجغرافية، بل يثقون برسالته الانسانية التي تتخطى الحدود. قد يواجه لبنان صعوبات في اداء دوره، وقد تعثر فعلا عبر مراحل عديدة، لكنه لم يتخل يوما عن الدور الرائد الذي يقوم به ويعتبر جوهر الوجود ومعنى الاستمرار.

■ هل تعتقدون ان التدخلات الخارجية في شؤوننا تضعف دورنا الريادي، ام ان الخلل في الداخل يشكل العنوان الابرز؟

□ لا يمكن للخارج ان يحقق ولو بعض اهدافه من دون تواطؤ داخلي، او من دون استقواء خارجي. فقد حدث كل ذلك سابقا اكثر من مرة ومع جهات محلية، ودفع البلد ثمنه غاليا. فهو لا يزال حتى اليوم يصارع، لكن ما ود الاضاءة عليه ان التجاذبات الخارجية لن تنجح ولا يمكنها ان تكون حجر عثرة. يكفي ما دفعه هذا البلد من ثمن مرتفع من امنه واستقراره وسلامته أبنائه، حتى يدرك الجميع ان الوحدة الوطنية هي السبيل الاسلم للعيش معا بعيدا من التجاذبات السياسية والتدخلات في شؤوننا أيا يكن نوعها. لذا فاني اقول بشكل واضح وصريح، ان الحسابات الضيقة لا تخدم سوى الخارج الذي يسعى الى البلبلة والفتنة، لكن من الضرورة ان تتقدم المصلحة الوطنية على كل اي شيء آخر لأنها هي الضمانة الوحيدة لحقوق الجماعات المتعددة التي تتألف منها العائلة اللبنانية الواحدة.

الامين العام للجنة الوطنية الاسلامية - المسيحية للحوار الدكتور محمد السماك.

"الاستقلال مسؤولية مستمرة وليست مناسبة عابرة"

■ كيف يمكن للجيل الشاب ان يعيد احياء روح الاستقلال في حياته اليومية؟

□ تفتقر برامج التعليم في مدارسنا الى مادة الثقافة الوطنية. فنحن اليوم نطلب من الشباب ما لم نعلمهم اياه وهم في صغرهم. ان روح الاستقلال ليست شعارا يرفع في المناسبات فقط، بل هي ثقافة تبنى عبر السنوات، وتتشكل عبر ممارسات يومية تبدأ من البيت والمدرسة وتكبر مع الانسان في حياته. ما يؤسف حقا هو ان مظاهر الاحتفال بهذا العيد الوطني، باتت تتقلص عاما بعد عام، حتى اصبح يوم هذا اليوم الوطني بالنسبة الى كثيرين مجرد عطلة مدرسية او اجازة عمل، بلا مضمون حقيقي. هذا دليل واضح على خلل في الوعي، وعلى تقصير في اداء المؤسسات التربوية والثقافية. من هنا، تبرز ضرورة ان يولي القيمون على الشؤون التربوية اهتماما اكبر بهذا اليوم، وان يحولوه الى محطة سنوية يعاد فيها التأكيد على الايمان العميق، وعلى الالتزام بالمعاني او القيم. فإقفال المدارس والمؤسسات وحده لا يعبر عن روح المناسبة، ولا يطمئن الى مستقبل الانتماء الوطني. المطلوب ان يكون هذا اليوم مختلفا بالفعل، حيث تتجلى فيه الروح الوطنية ويشعر الجيل الجديد ان الاستقلال مسؤولية مستمرة وليست مناسبة عابرة.

■ ما الدور الذي يجب ان تلعبه النخب الفكرية والاعلامية في حماية الحفاظ على وحدة الوطن؟

□ من المفيد تنظيم احتفالات مشتركة بين جميع المدارس اللبنانية، بغض النظر عن تنوع انتماءاتها الدينية والمذهبية. كما يعتبر هذا العيد فرصة لاقامة المناسبات التي تعكس روح الوحدة الوطنية. واؤكد على كلمة "المشتركة" لأنها تعبر عن المعنى الجامع الذي يوحد الجميع تحت راية الوطن.

■ كيف تعبر عن ولائك وحبك للبنان الذي تحلم به؟

□ ما يمكنني قوله، جملة واحدة صادقة: "انا مخلص في حبي وانتمائي لبلدي". احلم بلبنان كما صوره البابا الراحل يوحنا بولس الثاني، هو وطن الرسالة، والاخوة والعيش المشترك بصفاء وحب وتكامل.